

المؤسسة الجامعية:المركز الجامعي سي الحواس -بريكة -

عنوان المداخلة : نشأة الحواضر وزوالها بالمغرب الأوسط من خلال كتابات

ابن خلدون "تمهت و ايكجان أنموذجا".

The rise and fall of the urbanites in the Middle Maghreb
through the writing of Ibn Khaldoun "tihret and Ekjan
sample"

خالد كريبي أستاذ محاضر أ

البريد الإلكتروني: khaled.kribi@cu-barika.dz

المحور الرابع : تعاقب الدول و تأثيرها على مجال المغرب الأوسط

تاريخ الاستلام: 2024/11/05 تاريخ القبول: 2024/12/05 تاريخ النشر: 2024/12/18

ملخص

يدور موضوع هذه المداخلة حول نشأة الحواضر وزوالها بالمغرب الأوسط

من خلال كتابات ابن خلدون، فهو يعتبر أن نشأة المدن ترتبط بتكوين

التجمعات البشرية وظهور الحضارة، وقد شدد على أهمية التعاون والتفاعل

بين الأفراد في بناء المدن وتطورها .

أما زوال المدن فقدم ابن خلدون فكرة الاضمحلال الاجتماعي

والاقتصادي كأسباب لزوالها. وأشار أيضا إلى أن فقدان الروح الاجتماعية

يمكن أن يؤدي إلى ضعف المدن وانهارها. كما ركز على أهمية الحكم السياسي

القوي والترابط الاجتماعي للحفاظ على استمرارية المدن وتطورها .

وسنقف من خلال كتابات ابن خلدون على دور المدن في تقدم الحضارة

وتطورها. فضلا عن التحذير من العوامل التي قد تؤدي إلى زوالها .

This intervention focuses on the rise and fall of cities in the Middle Maghreb through Ibn Khaldoun's writings. According to him, the development of human groups and the rise of a civilization are related to the establishment of cities. He stressed the importance of cooperation and interaction between individuals in the construction and development of cities.

The idea of socioeconomic degradation has been attributed to the decline of cities. He added that cities may become vulnerable and collapse due to a loss of social cohesion. In order to maintain and grow cities, he also underlined the significance of solid political governance and social cohesiveness.

We shall stand by Ibn Khaldoun's writings on the role of cities in the advancement and development of civilization, as well as warning of the factors that may lead to their demise.

مقدمة:

لم يكن ظهور المدن في بلاد المغرب حدثا عفويا ، بل توفرت له ظروف موضوعية ، ولم تكن عميلة الميلاد هذه بالأمر السهل في بلاد لم تتخلص بعد من سيطرة النظام القبلي ، فقد كانت هذه السيطرة تعرقل ظهور المدن ، لهذا كان التحول بطيئا و اقتصر على بعض القبائل التي بدأت في الانتقال من حياة الترحال إلى حياة الاستقرار.

عاش البربر آلاف السنين قبل الإسلام ، وهم بدو لم يستكملوا أسباب الحضارة ، والدول التي ملكتهم لم يطل ملكهم فيهم ، ولبدواوتهم كانوا أبعد عن ممارسة الصناعة ، وهم أهل عصبية وأنساب يحرصون عليها ، وحفظ الأنساب جعلهم يحافظون على بدواوتهم ويبتعدون عن سكنى المدن لذلك كان أكثر عمران شمال أفريقيا والمغرب في الخيام.

اهتم الدين الإسلامي بإنشاء المدن و تصميمها على ارفع المستويات التي تتماشى مع توجه الإنسان وفطرته وطبيعته ، وصاحب انتشار و توسع الإسلام في بلاد المغرب تأسيس وازدهار العديد من المدن الإسلامية ، وارتبطت هذه المدن ارتباطا وثيقا بالإسلام و النظم الإسلامية ، وأصبحت المحور الأساسي الذي تدور حوله حياة المدينة السياسية و الاقتصادية وتخطيطها وحتى نسيجها العمراني.

وعرف المغرب الأوسط ظهور عدة مدن أصبحت فيما بعد حواضر اختلفت باختلاف ظروف نشأتها و المؤثرات التي أثرت في نموها و تطورها و بالتالي كان

هناك تطور و تنوع في إنشاء المدن عبر العصور المختلفة نتيجة مواكبة الإنسان للزمن و متطلباته.

وسنحاول في هذا العرض التركيز على حاضرتين من حواضر المغرب الأوسط هما تيمرت واكجان وهي مدن ارتبط ظهورها و بناءها بالدويلات المذهبية التي تأسست في القرنين الثاني والثالث الهجريين /الثامن وبداية العاشر الميلادي. وسنقف من خلالها على ماكتبه المؤرخ ابن خلدون حولها في العوامل التي ساهمت في تأسيسها و تطورها ثم الأسباب التي عجلت بتراجع مكانتها و أفول دورها وصولا لزوالها.

1-نشأة مدينتي تيمرت و ايكجان في المصادر التاريخية السابقة لابن خلدون: 1.1- تيمرت:

مدينة تيمرت واحدة من المدن الرئيسية في المغرب الأوسط في العصر الوسيط، بنيت على أنقاض مدينة قديمة، في منطقة بسفح جبل قزول على تلول منداس وذلك لجودة مناخها وخصوبة تربتها ووفرة مياهها. اختلفت الروايات التاريخية في نشأتها قبل ابن خلدون قال عنها اليعقوبي و هو مصدر موثوق لأنه زار المنطقة .ويذكر البكري: "أن تيمرت مدينة مسورة لها أربع أبواب: باب الصفاء وباب المنازل و باب الأندلس وباب المطاحن ، وهي في سفح يقال له "جازول" و لها قصبة مشرفة على السوق يقال لها المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى "نافس" ومنها شرب بساتينها، و فيها جميع الثمار ، وأنه لما هرب عبد الرحمان من القيروان اجتمعت عليه الاباضية ، و اتفقوا على تقديمه و بنيان مدينة تجمعهم فنزلوا موضع تيمرت اليوم، وابتدأوا من تلك الساعة فاخطوا وبنوا، وسمي الموضع : معسكر عبد الرحمن بن رستم ¹. ووصفها المقدسي بقوله: "تاهرت هي اسم القصبة أيضا و هي بلخ المغرب قد أحرق بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار، و غابت في البساتين ، و نبعت حولها الأعين ، وجلَّ بها الإقليم ، و

انتعش فيها الغريب و استطابها اللبيب..."²، و يبدو أن المقدسي لا يتحدث عن تأسيس المدينة و لا يشير إلى ذلك رغم وصفه الدقيق لها.

يتبين مما سبق أن المصادر التاريخية السالفة الذكر تشترك و تجمع في أن بناء المدينة كان في موضعا اختير بدقة لما توفر عليه من مقومات ، فالمدينة بعيدة عن القيروان تفصل بينهما منطقة الزاب و جبال الاوراس ، أي أنها بمنأى عن والي القيروان لو فكر في فعل شيء ماضد الرستميين و هي بعيدة عن الساحل وأعمال القرصنة التي قد يقوم بها الأسطول البيزنطي من حين لآخر مما اكسبها موقعا استراتيجيا منيعا ساهم بدرجة كبيرة في استقرارها . كما هي ذات مناخ ملائم للزراعة ، وهي وفيرة المياه فهي على نهر نافس و تشرف على عيون وفيرة ومتنوعة ، و تتعرض لهطول أمطار غزيرة مما جعلها منطقة زراعية

1.2- ايكجان :

كان لتمكن الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب اثر ايجابيا على العمران حيث تمكنوا من تشييد مدينة ايكجان ، بين مدن سطيف و ميله و قسنطينة أي بين مراكز هامة في بيئة كتامة³ ، حيث كان لها دور فعال في نشر دعوتهم و تأسيس دولتهم بالمغرب الإسلامي . و قد سماها الداعية الشيعي أبو عبد الله بدار الهجرة، و جعل منها أرض هجرة لكل من تشيع في افريقية و المغرب⁴ .

وجاءت المدينة عند ياقوت الحموي باسم "انكجان": ناحية بالمغرب من بلاد البربر، ثم من بلاد كتامة منهم ؛ كان أكثر مقام أبي عبد الله الشيعي بها ، ويسمى دار الهجرة ؛ وسمعت بعضهم يقول ايكجان بالياء⁵ . فكانت المدينة محل عبور للفاطميين وجعلوها معسكر لنشر دعوتهم وقد تعددت التسميات فيها .

ويتحدث المقريزي عن موضع بجبل ايكجان يسمى فج الأخيار فيقول : "سار أبو عبد الله الشيعي إلى جبل يقال له ايكجان وفيه فج الأخيار وما سعي إلا بكم " : أي أن سكان الجبل كانوا يقومون بفعل الخير ولهذا سمي الموضع نسبة

لذلك ويكمل المقريزي بقوله: "...ولقد جاء في الآثار للمهدي هجرة تتبوا عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشق من الكتمان ، وبخروجكم من هذا الفج سمي فج الأخيار"⁶ ، ويقصد هنا أن أهل المغرب سينصرون الإسلام والمسلمين في آخر الزمان.

كان أول عمل قام به الداعية ابو عبد الله الشيعي بايكجان بناء المسجد و بجواره القصر: "فرغبا إليه مع جماعة من بني سكتان أن يقيم بايكجان فأجابه إلى ذلك ، و أبتنى به قصراً ، و ارتحل الناس إليه وجعله دار هجرته وقرار أهل دعوته"⁷

و يظهر من خلال هذا النص أن مركز المدينة بدأ بالمسجد و بجواره قصر الداعية الشيعي الاسماعيلي ، و تكون بذلك ايكجان قد جمعت بين دورها الروحي والسياسي ، أما المسجد فظل كما بدأ في العصور الوسطى مركزا للنشاط الدعوي و السياسي فقد استعمله أبو عبد الله منبرا حيث كان يجلس إلى المؤمنين فيحدثهم و يعلمهم أحكام الدين ، فحسنت أحوالهم و قويت نياتهم و بصائرهم⁸

أما سياسيا فقد اتخذ الداعية الشيعي المدينة منطلقا لتوسعاته نحو مدن المغرب الأدنى و الأوسط وإخضاعها لنفوذه ، كما أصبحت المدينة أيضا مقصدا لشيوخ القبائل طلبا للانخراط في دعوته "فالتزمت كتامة الطاعة لأبي عبد الله، و دخلت قبائل كثيرة في دعوته ، فصير لهم ديواناً و ألزمهم بالعسكرية.. إلى أن صفا له أمر البربر"⁹.

2- نشأة مدينتي (تهرت - ايكجان) عند المؤرخ ابن خلدون

يرى ابن خلدون أن المدن هي مستقر الأمم والدول: "...و اعلم أن المدن قرار تتخذها الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف و دواعيه ، فتؤثر الدعة و السكون و تتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار" و يجب أن يراعي في بناء المدينة وسائل الحماية وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها: "و لما كان ذلك القرار

المأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية¹⁰ . وعن وسائل الحماية من العدو الخارجي يقول أنه لابد من سياج أو سور يحمي المدينة ، وأن تقام على هضبة وعرة أو يحيط بها بحر أو نهر.

وعن وسائل الحماية من الأمراض يرى أن يكون هواء المدينة صحيا بعيدا عن مواطن التلوث.

التجارية البحرية أو البرية ومدى أهميته في قيام المدن ، وتوفير فرص العمل لسكان المدن ، و التبادل التجاري مع غيرها من المدن مما قد يؤدي حتما إلى التواصل و التبادل الثقافي.

وعن بناء مدينة تهرت يذكر عبد الرحمن بن خلدون أن عبد الرحمن بن رستم قد تحالف مع قبائل المنطقة ليضمن التأييد لسياسته فيما بعد فقد " نزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم ، فاجتمعوا إليه وبايعوا له بالخلافة ، واثتمروا في بناء مدينة ينصبون بها كرسي إمارتهم ، فشرعوا في بناء تاهرت في سفح جبل كزول السياح على تلؤل منداس ، واختطوها على وادي ميناس النابعة منه عيون بالقبلة ، وتمر بها وبالبطحاء إلى أن يصب في وادي الشلف ، فأسسها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن ، وولي ابنه عبد الوهاب من بعده"¹¹.

ويشير عبد الرحمن بن خلدون إلى سياسة المهادنة التي اتبعها عبد الرحمن بن رستم من أجل المحافظة على دولته الفتية ، خصوصا من خطر الأغالبة في القيروان ، " ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة إحدى وسبعين ومائة في موادة صاحب القيروان روح ابن حاتم بن قبيصة بن المهلب ، فوادعه وانحصدت شوكة البربر و استكانوا للغلب وأطاعوا الدين"¹².

إن تمكن الشيعة من الاستيلاء على تاهرت أنهى فترة الحكم الرستمي فيها بشكل نهائي ، وأخرجها من كونها عاصمة المغرب الأوسط ليعين بذلك أبو عبيد

الله الشيعي على رأسها أبو حميد دواس بن صولان الهيصي ، " ولم تزل تاهرت هذه بعد لأعمال الشيعة وصنهاجة سائر أيامهم".¹³

وبعد هذه المرحلة المهمة من تاريخ تاهرت تصبح هذه المدينة قاعدة استراتيجية مهمة بالنسبة للفاطميين من أجل السيطرة على المغرب الأقصى وحتى على الأندلس، ومركزا مهما لمراقبة تحركات القبائل الأمازيغية خاصة الزناتية، بحيث تحولت إلى مركز للتوغل في بلاد المغرب الأقصى، وما لبثت أن أصبحت بين يدي مغراوة بعد أن قتل هؤلاء مصالة بن حبوس سنة 312هـ/924م ، ثم سيطر عليها القاسم بن المهدي الفاطمي سنة 315م/927م، لتخضع بعد ذلك إلى سلطة مغراوة للمرة الثانية بعد وفاة أبي القاسم بن المهدي. وهكذا أصبحت مدينة تاهرت مركزا للصراع والتناحر بين القبائل الزناتية والدولة الفاطمية، إلى أن استحكمت عليها صنهاجة.¹⁴

أما مدينة إيكجان فإنها لم تحظى بمكانة كبيرة في كتابات ابن خلدون مقارنة مع ماكتبه عن تهرت حيث ورد ذكرها في أكثر من ستون موضعا ، و هو مايبين قيمة ماكتبه ابن خلدون عنها. ومن بين مذكره عنها واجتمعوا على دعوته و كانوا يسمونه أبا عبد الله المشرفي و الشيعي ، و لما اختلف كتامة عليه و اجتمع كثير منهم على قتله قام بنصرته الحسن بن هرون و سار به الى جبل إيكجان وأنزله مدينة تاصروت ، و قاتل من لم يتبعه بمن تبعه حتى استقاموا جميعا على طاعته "¹⁵.

هذا الأمر لم يقتصر عليه فقط فالكثير من المصادر التاريخية و حتى الجغرافية التي سبقته لم تتحدث عن مدينة إيكجان بل حتى المصادر القريبة من الفاطميين اكتفت بذكر الأخبار التي تعلق بتشاط الداعية أبو عبد الله الشيعي و تحركاته السياسية و العسكرية و لم تقدم وصفا دقيقا للمدينة و لا حتى ذكرت المرافق التي انشئت بها بل لقد غاب ذكرها كلية بعد دخول الفاطميين لرقادة و اتخاذهم عاصمة لملكهم .

3- خراب المدينتين :

تمهت:

وصف ابن حوقل خراب مدينة تمهت قائلا: "وقد تغيرت عما كانت عليه ، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بسبب تواتر الفتن عليهم و دوام الفتن عليهم و دوام القحط و كثرة القتل والموت .." ¹⁶ .و هي نفس الإحداث التي عرفتھا المدينة في القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي نتيجة حركات البدو، و هجرات بني هلال و أحلافهم من مصر فزال الأمن و الهدوء ، وحدث تغيير جوهري في الحياة السياسية و الاقتصادية والاجتماعية.

كما شكلت الصراعات التي قامت بين مختلف القبائل خطرا على السلطة ، حيث فشلت هذه السلطة في الكثير من المرات في فرض سيطرتها عليها بسبب اختلاف الآراء و الأهواء ، ومعارضة السلطة والخروج عنها و عدم الانقياد لها ، فأصبحت الدولة عاجزة عن التحكم في القبائل ¹⁷.

كانت تمهت من المدن التي مسها الخراب لأسباب سياسية كالحروب و الصراعات "واستبيحت تاهرت فكان آخر العهد بعمرانها.." ¹⁸، أو ما كان لأسباب طبيعية بعدما هجرها أهلها فأتى على خرابها ، و لأسباب أخرى ، حيث أورد ابن خلدون في مقدمته عدة فصول حول خراب المدن ، منها: أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل ، وأن الأمصار تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة ، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران ويبين ذلك قائلا: "فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، و المانعون لحقوق الناس ظلمة ، و غُصَّاب الأملاك على العموم ظلمة ، و وبال كل ذلك عائد على الدولة بخراب العمران ، وأعلم أن هذه الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو مانئاً عنه من فساد العمران و خرابه " ¹⁹

ويورد ابن خلدون الكثير من الأسباب التي تؤدي إلى خراب و زوال المدن منها: أن للعمران عمر محسوس ثم يأخذ بعده بالانحطاط وكذلك حال بعض المدن ، وأن الترف والنعيم وكثرتهم يؤديان إلى تحولات تقود إلى خراب المدن و زوالها، ومما يؤدي إلى خراب المدن جور الحكام ، فإذا إنتقض السلطان ينتقض العمران و يؤدي إلى الخراب ، و حتى التناوب على السلطة و انتقالها من ملك لآخر وبناءه لمدينة جديدة ينتقل إليها و يستقر بها يؤدي حتما إلى ترك الأولى فتخرب بطبيعة الحال .

ويضيف ابن خلدون عاملا آخر يراه سببا في انهيار المدن و خرابها و هو العامل الاقتصادي فعندما يفسد نظامه فيهمل دور الري و الزراعة و خدمة الأرض فتنهار المدن اقتصاديا ويعم الخراب فيها .
يورد ابن خلدون محطات عن خراب تهمرت أهمها استيلاء أبي عبد الله الشيعي على المدينة واستباحتها و تدمير مافها و إحراق مكتبتها و اخذ أموالها بعد عودته من سجلماسة مع عبيد الله المهدي²⁰ .

ثم يتحدث عن الخراب الذي ألحقه بنو غانية بمدن المغرب الأوسط و خاصة تهمرت من تدمير، و تخريب للعمران و نهب وسطو : " ثم صارت إلى دولة الموحدين من بعدهم، وملكوا المغربين، وخرج عليهم بنو غانية بناحية قابس، ولم يزل يجيء منهم جلب على ثغور الموحدين وشن الغارات على بسائط افريقية والمغرب الأوسط"²¹

خراب ايكجان:

بعد إعلان الخلافة الفاطمية، وانتقال عبيد الله المهدي من إلى رقاده. ذهبت ايكجان، ولم يبق لها أي ذكر، ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى، إلى تصفية شيوخ كتامة، بعد مقتل الداعي الفاطمي وتحول المنطقة من تأييد للخلافة إلى معارضتها فتركت ايكجان، وقلَّ دورها بعد انتقال الدولة الفاطمية الى رقادة في المغرب الادنى، ففقدت مدينة إيكجان تأثيرها وأهميتها، وبدأت تتدهور تدريجياً. حيث تركت المدينة للعوامل الطبيعية والزمن، وأصبحت

مدينة مهجورة. و تعرضت فيما بعد إلى التخريب، في عهد الدولة الزيرية حيث ثارت كتامة على بني زيري في عهد المنصور بن بلكين.
الخاتمة:

يعتبر ماكتبه ابن خلدون من أفكار أصيلة تتعلق بنشوء المدن و تطورها و تصنيفها من حسب الوظائف أساسا لكثير من المفاهيم الحديثة التي يهتم بها علم الاجتماع و مخطوطو المدن، حيث رأى بأن الميل نحو الاستقرار و بناء المدن هو تطور حضاري، و استنتج أن المدينة ظاهرة اجتماعية و جغرافية متطورة.

كما بين ابن خلدون أن المدينة أيضا لا تظهر بصورة مفاجئة و سريعة ، و لكنها تمر بمراحل معينة في عملية نشأتها ، كما أن المدينة في رأيه تتأثر بالعناصر الطبيعية للأقاليم التي تقع فيها من حيث حجمها ووظيفتها و علاقاتها الخارجية .

شكلت تهرت منطقة لصراع القوى المغاربية (الفاطميين - الرستميين، الفاطميين - الامويين ، صنهاجة - زناتة ، بنو غانية - الموحيدين، و هو صرع كان له تأثير على تراجع عمران تهرت

إن الحروب والصراعات الداخلية تعتبر من أهم العوامل التي تؤدي إلى تخريب المدن والحضارات، وتجعلها عرضة للخراب والدمار.
كان لقيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب اثر ايجابيا على العمران في بعض الأحيان بتشجيعهم لمدينة ايكجان حيث تتواجد قبيلة كتامة ، و التي كان لها دور فعال في نشر دعوتهم و تأسيس دولتهم.

الهوامش

- أبي عبيد عبد الله البكري: الممالك و الممالك، تحقيق جمال طلبة ،دار الكتب العلمية ،بيروت ¹

- شمس الدين أبي عبد الله المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، بيروت²
2003، ص 185
- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر و الاشهار، الجزائر³
1979، ص 154
- حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر أعمالهم السياسية والدينية، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1932،⁴
ص 56
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1977، ج 01، ص 273⁵
- تقي الدين احمد المقرئ: اتعاظ الخنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشبال،⁶
مطابع الأهرام التجارية، القاهرة 1996، ج 01، ص 57
- داعي إدريس عماد الدين: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق محمد البعلاوي، دار الغرب⁷
الاسلامي، بيروت 1985، ص 113
- داعي إدريس عماد الدين: المصدر نفسه، ص 113⁸
- أبي العباس ابن عذاري: المصدر السابق، ج 01، ص 172-173⁹
- عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 2001¹⁰
ج 01، ص 432
- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 6، ص 159.¹¹
- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 6، ص 148.¹²
- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 6، ص 159-160.¹³
- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 06، ص 159-210.¹⁴
- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 03، ص 451-452.¹⁵
- أبي القاسم ابن حوقل: صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1992، ص 93.¹⁶
- عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 01، ص 356، ص 206¹⁷
- عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 06، ص 375¹⁸
- عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 01، ص 356¹⁹
- عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 03، ص 47²⁰
- عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 06، ص 160²¹